



العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثامن

ملكة الجنس

تذكرني قضية الجنس في العالم العربي بقصة قديمة حول تلميذ الساحر والفييل الوردى. إذ يقال بأن أحد أساتذة الخيمياء (تحويل المواد إلى ذهب). وبعد أن شرح لتلميذه الخطوات المعقدة لصناعة الذهب. قال له: «وأهم أمر في العملية كلها أنه يتوجب عليك أن لا تفكر بالفييل الوردى.» اندهل التلميذ لوقع هذا التحذير. وحاول دون جدوى أن يتقيد به. ولكنه كان -بالطبع- عاجزاً عن أن يطرد الفييل الوردى من ذهنه. أخيراً استسلم التلميذ في محاولاته لصنع الذهب واقترب من أستاذه بحزن قائلاً له: «لماذا يا سيدي؟ ما الذي دفعك إلى إخباري بأن لا أفكر بالفييل الوردى؟ فلو لم تفعل. لم أكن لأفكر فيه على الإطلاق.»

يرمز «الفييل الوردى» في خيمياء الحياة العربية إلى المحظورات الجنسية. فالوالدان وبقية أفراد العائلة يملؤون ذهن الطفل العربي بأن الجنس خطيئة. كما تقوم الثقافة ككل بإحاطة الفرد بجو يذكره دائماً بهذا المفهوم. إن فصل الجنسين. وتحجيب المرأة حيثما يمارس. وكافة الأعراف الدقيقة التي تحكم وتقيد التواصل بين الرجل والمرأة. ذات تأثير يجعل الجنس أولوية تشغل عقل العالم العربي. فالمحظور الجنسي نفسه هو الذي يصنع نوعاً من التمسك به.

1. الشرف الجنسي

لا يصعب على الغربي أن يدرك المفهوم العام للشرف عند العرب. فالشرف. مهما قيل عنه وحتى في أشد أشكاله صلابته كـ«الوجه». هو أمر موجود في المجتمع الغربي أيضاً. ولكن الغربي يصاب بالحيرة حقاً عندما يحاول إدراك كنه المفهوم العربي الخاص عن شرف الرجل والذي يعتمد على الأداء الجنسي للمرأة التي ترتبط به. والغربي. كذلك. يعاني

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

فقدانا مهما في الوجه إذا قامت زوجته -أو ابنته على مدى أقل- بارتكاب الزنا وعلم الناس بذلك. ولكن الطلاق، باعتباره قانونا، كفيل باستعادة الرجل لوجهه ووضع الطبعي؛ وبما أن والد الزوجة له علاقة بهذا الشأن، فهو في معظم الأحيان يسعى إلى إبداء تعاطفه وتفهمه لما قامت به ابنته باعتبارها تمر بأزمة في حياتها. وفي وجهة النظر الغربية لا يمكن اعتبار الفرد مسؤولا قانونيا ولا أخلاقيا عن أفعال فرد آخر. وبالتالي فإن العمل الشائن وإن قام به شخص شديد القرابة لا يؤدي سوى إلى أثر ضئيل على القريب، هذا إن كان له أثر في الأصل.

أما في ثقافة القري السائدة في العالم العربي، فإن الوضع مختلف جدا. حيث تتسم الروابط العائلية بالقوة إلى حد يجعل كل أفراد العائلة يعاني من «سواد الوجه» بعد العمل الشائن الذي قد يرتكبه أي منهم. ورغم ذلك، وفي هذا السياق العام، يميز العقل العربي بحدة ما بين العمل الشائن الذي تركبه المرأة وذات العمل إن ارتكبه الرجل. ويعد أسوأ الأعمال الشائنة في العالم العربي ما ينتج عن إساءة تصرف جنسي صادرة عن الابنة أو الأخت أو ابنة العم. وإذا ما زنت الزوجة، فإنها تسبب أذى عاطفيا لزوجها ولكنها لا تلحق به العار.

إن هذه النظرة الخاصة لشرف الرجل تغوص جذورها عميقا في بنية وآليات نظام القرابة عند العرب. إذ لا يمكن إبداء أو إضعاف روابط الدم أو النسب. وهذا يعني أن المرأة وإن تزوجت رجلا من عائلة أخرى، فإنها لا تكف عن كونها عضوا في عائلتها الأصلية. ويبقى أقبائها في النسب مستمرين في مسؤوليتهم عنها. وهذا الأمر يعود بالفائدة على المرأة المتزوجة وخاصة في تلك الفترة الصعبة من حياتها التي تسبق بلوغ أبنائها ليكونوا هم من يدعمها ويحميها. فقبل ذلك الوقت، ليس للزوجة الشابة التي يُنظر إليها باعتبارها غريبة عن عائلة زوجها سوى أن تعوّل دائما على دعم وتعاطف أبيها وإخوتها. إن مجرد العلم بأن هؤلاء الرجال يقفون خلف هذه المرأة بقوة وأنهم مستعدون حتى للقتال من أجلها، يجعل عائلة الزوج تعيد حساباتها في معاملة زوجة قريبهم.

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

مهما تحصل عليه المرأة من مدح أو ذم ينعكس على عائلة أبيها. وتصبح هذه المسؤولية شديدة الفعالية عندما ترتكب خطيئة جنسية. أو إذا وصلت تصرفاتها إلى حد يجعلها محط الشبهات بأنها قد تستسلم لإغراء يدفعها لارتكاب عمل تحظره الأعراف. وأقوى الموانع التي وضعتها الثقافة العربية للحؤول دون ممارسة الجنس بطريقة غير شرعية (أي علاقة جنسية بين رجل وامرأة لا تربطهما علاقة زواج) هي المساواة بين شرف العائلة والسلوك الجنسي لبناتها. سواء أكنّ عازبات أم متزوجات. وإذا ما ثبت أن البنت مذنبه بأقل المخالفات الجنسية أهمية (وهذا يتحدد بشروط مختلفة باختلاف المكان) فإن أباه وإخوتها يفقدون شرفهم. ويمكن استعادة الشرف العائلي بطريقة واحدة فحسب وهي معاقبة المرأة المذنبه: وهذا يعني في الأوساط المحافظة: الحكم عليها بالقتل.

ويمكن ملاحظة ما ينعكس على اللغة من الوضع الخاص الذي يستأثر به السلوك الجنسي للمرأة على ظاهرة الشرف والعار. فكلمة «الشرف» تشير إلى مفهوم عام. أما إذا أردنا تخصيصها بالمرأة وسلوكها الملائم فالكلمة المستعملة هي «العرض». وللشرف مفهوم مرن: فهو يعتمد على سلوك الرجل. وطريقته في الكلام والتصرف. وهذا الشرف -بالنسبة للرجل- قابل للاكتساب والتقوية والتقلص والضياع والاستعادة... الخ. وعلى العكس من ذلك، للعرض مفهوم صارم: فلكل امرأة عرضها الخاص بها: وهي تولد وتنمو معه. ولكنها لا تتمكن من تعزيزه لأنه مفهوم مطلق. ورغم ذلك يتوجب عليها المحافظة عليه. وإذا تعرضت لإساءة جنسية، مهما كانت ضئيلة، فإنها تفقد عرضها. وإن ضاع العرض مرة، فلا سبيل لاسترجاعه مجدداً. ويبدو الأمر وكأن المكانة الجسدية للعدرية تتوازى مع العرض على المستوى العاطفي-المفاهيمي. فكل من العذرية والعرض يكونان أجزاء مهمة من المرأة: إذ أن كليهما لا يمكن تعزيزه. وكلاهما لا يسترجع إن ضاع. وهما متشابهان في أكثر من جانب: فحتى إن تعرضت المرأة لهجوم واغتصاب، فإنها تفقد عرضها بفقدانها لعذريتها. وهما يختلفان، بالطبع، في أن فقدان العذرية بشكل مشروع ومقبول ومتوقع في

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

ليلة الزفاف ليس له أثر مشابه على العرض: فعلى المرأة أن تحافظ على عرضها وتحميه بحرص إلى يوم مماتها.

وثمة ظاهرة يمكن ملاحظتها بشكل أوضح: وهي أن شرف الرجل يتوقف بشكل كامل تقريبا على عرض النساء في عائلته. صحيح أن الرجل ربما يفقد شرفه كليا أو جزئيا إذا ظهر منه تقصير في موقف يقتضي الشجاعة أو الكرم. ورغم ذلك، فإن نسبة حدوث مثل هذه المواقف ضئيلة لأن الرجل يتعلم منذ بداية تربيته على أن يحافظ مهما كانت التكاليف على مظاهر الشجاعة والكرم. ومع هذا، إن من يخرق هذا القانون بصورة علنية يخسر شرفه، لكنه لن يتعرض لعقوبة جسدية تفرضها العادات والتقاليد. وقد يختلف العرب حول الجرائم التي تقع خارج نطاق الأعراف الأخلاقية، كالقتل والسرقة وخيانة العهد وأخذ الرشوة، وسوى ذلك من الأفعال الخاطئة؛ فمنهم من يرى أنها تؤثر على الشرف ومنهم من لا يرى ذلك، لكنهم يتفقون جميعا على أن انتهاك عرض المرأة يدمر شرف رجال عائلتها. وهذا دفع أحد دارسي الأخلاقيات العربية إلى استنتاج يرى بأن من الواضح أن المكون الأساسي لشرف الرجل هو حماية أعراض قريباته من النساء. ويمكن أن نضيف لهذا الاستنتاج أن هذا الموقف هو من صفات العالم العربي ككل. وأن انتهاك العرض، سواء أكانت المرأة هي من تسبب به أم عشيقها، هو الجريمة الوحيدة التي يعاقب عليها بالقتل في العرف الأخلاقي العربي. وبما أن المرأة إذا ارتكبت أمرا محظورا من الناحية الجنسية فإن ذلك يلحق العار بعائلة أبيها دون عائلة زوجها، فهذا يقتضي أن عقابها يقع على عاتق عائلة أبيها (كأبيها نفسه، أو إختها، أو أبناء عمومتها)، وهذا العقاب يتمثل في قتلها كسبيل وحيد لإصلاح الضرر الذي لحق بشرف العائلة.

وليس من الصعب ملاحظة أن العرف الذي يطالب عائلة الأب بمعاينة المرأة الزانية دون عائلة زوجها، هو عرف يخدم المحافظة على تلاحم الجماعة. فهذا يقتضي المحافظة بحرص على سيطرة تمارسها العائلة الأبوية وتتحكم من خلالها بحياة أفراد الجماعة إلى حد يجعلها ترفض التخلي عن هذا الحق وإن كان ذلك يتعلق بابنتهم المتزوجة. فإذا

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

ما قبلوا بأن ينفذ الحكم زوجها. وهو ليس من أفراد العائلة الأبوية للمرأة. فإن هذا يعطي حق التحكم لشخص غريب. وهذا يضعف سيطرة العائلة على أفرادها. وبما أن العقوبة على هذه المرأة ملزمة. فإن عائلة أبيها تتقبل قتلها دون تردد في أداء هذه المهمة المريرة. وذلك تطبيقاً للمبادئ التي تقتضي حماية شرف العائلة وإن كان ذلك على حساب حياة أحد أفرادها.

من الجهة الأخرى. يقع على عاتق الزوج بشكل رئيسي مهمة البحث عن الرجل الذي انتهك عرض زوجته والقيام بقتله. وفي العلاقة ما بين الزوج وهذا الرجل توجد منظومة أخرى من القيم التي ينبغي تطبيقها. فبما أن شرف الزوج لم يتعرض إلى أذى مادي نتيجة خطيئة زوجته (وفي هذا المجال تختلف الأعراف العربية بشكل مميز عن مثيلتها في جنوب إيطاليا حيث يدعى الزوج الذي خانته زوجته باسم «كرونتو Corunto» ويعاني فقداناً كبيراً في سمعته). فهذا لا يمنع من تعرض حقوقه الحصرية بخدمات زوجته الجنسية إلى ضرر كبير لا يمكن إصلاحه مما يستدعي أخذ الثأر عن طريق القتل. ويميل القانون الفرنسي إلى جانب الزوج إن قبض على زوجته بالجرم المشهود وقتلها مع/دون عشيقتها نتيجة ثورة غضب. أما العرف العربي فيذهب أبعد من ذلك: إذ يبرئ الزوج الذي يقتل عشيق زوجته ولو حصل القتل بعد سنين. ويتخطى ذلك إلى المطالبة بتنفيذ هذا القتل.

إن كل ذلك يشير إلى أن الرجل العربي الذي يدخل في علاقة خارج الزواج يواجه خطراً عظيماً بحق. وهذا يكفي عادة ليحجم عن هذه العلاقة أي شخص يمكنه وزن الأمور منطقياً فيما يخص العواقب المحتملة لأفعاله. (وحتى إن استطاع أن يتدبر النجاة من غضب الزوج المغدور. فثمة خطر آخر يتهدهده: ففي بعض الدول العربية المحافظة التي تعاقب اللص بقطع يده اليمنى. يعاقب على الخطيئة الجنسية بقطع العضو الذي قام بهذه الخطيئة). وهذا كله يعني أن العربي العادي لا يمكن له أن يدخل في علاقة جنسية مع النساء إلى أن يتزوج. وهذا ما لم يكن يعيش في مدينة كبيرة حيث تتوفر الدعارة. أو في مكان بدأت الأعراف الجنسية الغربية تخترقه. مثل مدينة بيروت. وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

العربي العادي لا يتزوج إلا في منتصف أو أواخر عشريناته (مع الحاجة إلى دفع مهر ضروري لوالد من اختارها). نجد أن فترة عدة سنوات تفصل ما بين البلوغ الجنسي وبداية علاقة جنسية شرعية.

وتصل حساسية العرب تجاه العرض إلى حد يصنع طريقة كاملة للحياة استنادا على مفهومه، والهدف من ذلك الوقاية من وقوع ظرف قد يؤدي إلى أن تفقد المرأة عفتها الجنسية، أو يمكّن رجلا من ارتكاب هذا الفعل. وحتى قبل أن تصل المرأة إلى عمر البلوغ، وبدءا من هذه المرحلة وحتى نهاية حياتها، على المرأة أن تكون محمية بترتيبات اجتماعية يقررها الرجال. وهذه الترتيبات المصممة لحماية عفة المرأة، تأخذ أشكالا عدة: منها ما هو مجرد إعاقة لحريتها (كتحجيب المرأة وحجبها عن النساء الأخريات وعدم إرسال البنات إلى المدرسة)، ومنها ما يسبب ألما فظيحا وضرا صحيا (كختان الإناث). وأحيانا يصل الخوف من أن تفقد المرأة أو الابنة عرضها إلى حد يؤدي إلى قتلها، حيث يعتقد بتفضيل موتها على فقدان الشرف الذي يعنيه فقدان عرضها بالنسبة للرجال في عائلتها. ويروي فولانين (Fulanain) في كتابه (عرب الأهوار: حجي ريكان) قصة شيخ في قبيلة نبيلة، لكنه كان دخيلا (الاجئا) عند عرب الأهوار في جنوب العراق، والذين كانوا يعتبرون غير نبلاء تبعا لهيكلية الهيمنة لأنهم مستقرون وليسوا بدوا من رعاة الجمال. وكان هدام زعيما شابا من زعماء عرب الأهوار، وحدث أنه وقع في حب ابنة الشيخ السابق، لكن الشيخ أبا، بالطبع، أن يزوجه منها لأنه غير نبيل. لكن في أحد الأيام لاحظ الشيخ أن ابنته كانت ترمق الشاب بنظرة مهتمة عندما مر بهم من على مسافة وهو يجذب بقاربه المصنوع من القصب. فما كان من الشيخ إلا أن أخذ ابنته إلى مكان ناء وقتلها حفاظا على عرضها -وعلى شرفه بالنتيجة- من أن ينهار بسبب رغبتها في الزواج من ذلك الزعيم الشاب. ومن أقصى جنوب العالم العربي ذكر أحد التقارير مرة أنه أثناء ثورة المهدي في السودان، قام بعض العرب السودانيين بقتل زوجاتهم وبناتهم خوفا من أن يكنّ عرضة لهجوم جنود الحكومة الذين كانوا يعتبرون عبيدا. إن مثل هذه الأحداث المتطرفة أصبحت نادرة مع مرور الوقت، وفي

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

هذه الأيام، وحتى عند عرب السودان، يمكن للفتاة التي يكتشف بأنها فقدت عذريتها قبل الزواج أن لا تتعرض للقتل. أما المتزوجة التي ترتكب الزنى فإنها قد تُخضع إلى اختبار قاسٍ لمعرفة الحقيقة، وإذا لم تفلح في اجتياز هذا الاختبار فإنها تقتل. كما أن عشيقها سوف يقتل بحسب العرف بواسطة أقرباء المرأة.

عندما يطبق ختان الأنثى، يكون الداعي له إما منع الفتاة من طلب ممارسة الجنس قبل الزواج (حيث يقطع البظر)، أو منعها من ممارسة الجنس بشكل عام (فيغلق الفرج بشكل كامل إلى أن يفتح مرة أخرى). ويرجع هذا التقليد إلى عصر ما قبل الإسلام، وقد مورس في مصر إبان العصر الهيليني. أما في الجزيرة العربية إبان الجاهلية فكان يقوم بهذا العمل امرأة تدعى المبظرة. وحتى أوائل العصور الإسلامية، كان ختان الأنثى يعتبر ضمن بعض القبائل العربية من الأمور التي لا غنى عنها في شروط الزواج. ولا يزال ختان الأنثى يمارس كتقليد (أو كان يمارس حتى وقت متأخر) في البقاع العربية التالية: بعض فئات الشعب الأردني (ضمن البدو والحضر)، مكة، جنوب شبه الجزيرة العربية (ظفار، عمان...)، قبائل جنوب العراق، مدينة البصرة، مصر (ضن المسلمين والقبط)، السودان (حيث يمارس إغلاق الفرج رغم معارضة الفقهاء)، بعض أنحاء الصحراء العربية... وهذه القائمة ليست شاملة حتماً، والانتشار الواسع لممارسة هذا التقليد يجعله ممكن الحدوث في الدول التي لم تشملها القائمة.

وعلى الرغم من أن الكثير من المراقبين علقوا على وظيفة ختان الذكر باعتباره اختباراً للرجولة والشجاعة حيث يمتلئ الولد الذي يجتاز هذه التجربة بإحساس أهمية الذات وأنه أنجز شيئاً ما، لكن القليل جداً منهم طرحوا أسئلة عن الأثر النفسي لختان الأنثى على الفتيات اللواتي يتعرضن له. ولا مجال للقول بأن ختان الأنثى اختبار لشجاعته، لأن الشجاعة ليست من القيم التي تتحلى بها المرأة أو يُتوقع منها أن تبديها. وعلاوة على هذا، فإن ختان الأنثى يجري عادة في السر دون علم أحد، على العكس من الذكر، وهذا يعطي للعملية محصلة تتمثل في أن ينطبع ذهن الفتاة بأنها أخط درجة من الذكر، فبينما يخدم

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

ختان الذكر الهدف المفترض المتمثل في تعزيز رجولته. فإن ختان الأنثى يمارس للحد من أنوثتها فيما يتعلق بالشهوة الجنسية. وتخويف الفتاة من الجانب الجنسي. ولاحظ أحد المراقبين أن ختان الأنثى. وبالأخص شكله المتوحش الذي يمارس في السودان. يسبب صدمة شديدة إلى حد يجعلها مسؤولة عما يلاحظه القائمون على تعليم الإناث في أن الفتيات عادة ما يكن ذوات مزاج خامل.

أما السؤال الأخير الذي تبقى حول مفهوم العرض فهو: ما هو تفسير هذه الحساسية الهائلة تجاه الشرف الجنسي للمرأة والتي يبديها المجتمع البدوي بشكل خاص. والمجتمع العربي التقليدي بشكل عام؟ لماذا تطالب العادات والتقاليد بإيقاع عقوبة الإعدام بحق المرأة التي ترتكب مخالفة جنسية؟ لا يمكن محاولة الإجابة على هذه الأسئلة إلا من خلال الإشارة إلى عوامل متعددة في الثقافة العربية التقليدية.

ترجع عقوبة القتل التي تطبق بالمرأة الزانية إلى عصر ما قبل الإسلام. وإلى العصور التوراتية بالتحديد. حيث تترافق هذه العقوبة مع التذكير بأن الزنا يسبب العقم. وأنه خطيئة كبرى إلى درجة تمكنها من أن تمسح من وجه الأرض كل الشعب أو الجماعة التي يرتكب أعضاؤها هذه الخطيئة. وبما أن المجتمع العربي ذو طابع أبوي ذكوري النسب متعدد الزوجات. مثله كمثله مجتمعات الشرق الأدنى القديمة التي انحدر منها. فإن الرجل يتمتع بحرية جنسية هائلة. ولا تضع حالته الزوجية حدا على الإطلاق لنشاطه الجنسي. ولا يزال هذا الأمر مستمرا. فحتى إن تزوج الرجل أربع نساء. يمكن له أن يقيم علاقات جنسية مع ملك اليمين. والمومسات. أو أية امرأة ليست على عهدة رجل آخر. وعندما يتزوج الرجل فلا يتوقع منه أن يمتنع عن ممارسة الجنس خارج العلاقة الزوجية. ولا يمسي الرجل مذنبا بإساءة جنسية إلا إذا ارتكبت المرأة التي يمارس الجنس معها عملا جنسيا شائنا.

أما بالنسبة للمرأة فالوضع مختلف جذريا. إذ يفترض أن لا يكون للمرأة علاقة جنسية إلا مع زوجها الذي ارتبطت به بشكل قانوني. وتعتبر حياتها الجنسية ملكا خاصا لزوجها ما

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

دامت متزوجة به. علاوة على هذا، يجب على المرأة أن تحافظ على عذريتها دون مساس إلى أن تحظى بزوجها الأول. ويؤكد هذه الحقيقة أن الحفاظ على عذرية المرأة يعتبر الواجب الأول على عاتق عائلة أبيها. وأكبر خطيئة يمكن لها أن ترتكبها هي أن تسمح لأي أحد بأن يستمتع بها جنسيا دون زوجها.

لا يمكن في المجتمع البدوي أن يمارس الفصل الصارم للجنسين بصورة فاعلة. فلا يمكن تطبيقه أثناء فترات التخييم أو التنقل. ويلتقي الرجال والنساء من العوائل المختلفة ويرون ويعرفون بعضهم بعضا. وبحسب العرف السائد، يتزوج الشباب من فتيات ينتمين إلى نفس القبيلة أو العشيرة أو العائلة. وفي مثل هذا الوضع، لا تشجع الأعراف الصارمة على أي نوع من التواصل غير الشرعي المغربي.

ويجب أن نضيف لما سبق القلق الأقل نسبيا في حياة البدوي، والذي ينشأ كنتيجة على المستوى البعيد للتأكيد الشديد الذي تمارسه الأخلاقيات البدوية في سبيل تأمين تلاحم الجماعة. إذ يتم تقييم حياة أي فرد من أفراد الجماعة بشكل أساسي من خلال مساهمته في ثروة الجماعة. وهذا يعني أن الجماعة التي يقوم كبار السن باتخاذ قراراتها والتعبير عنها ستكون مستعدة دائما للتضحية بحياة أفرادها إن كان شرف الجماعة مهددا. وانطلاقا من أن المرأة تعتبر تابعا للرجل، وأن القيمة الأساسية للمرأة من منظور الجماعة إنما تكمن في مدى قدرتها على أن تكون أمًّا. حاليا أو مستقبليا. فإنها إن ارتكبت خطيئة تمنعها من أداء هذه المهمة الكبرى فعليها أن تواجه مصيرها الحتمي: الموت. لقد تمت إحاطة الخطيئة الجنسية بمجموعة كبيرة من أنماط السلوك المحرم التي تؤدي إليها. وتوسع مفهوم العرض ليشمل جميع ذلك، وأصبح انتهاك العرض أيضا من الأمور التي يعاقب عليها بالموت.

إن كافة هواجس العقل العربي حول الجنس تعبر عن نفسها بمظهرين واضحين ينتشران في كافة أرجاء العالم العربي (مع بعض الاستثناءات المحلية). والمظهر الأول

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

أن الرجل والمرأة ينظران إلى بعضهما البعض باعتبارهما كيانات جنسية، وهما واثقان من أنهما كذلك في عين الآخر. أما المظهر الثاني فهو أن كافة نشاطات المرأة تعتبر من وجهة نظر الرجل أفعال مخلوق ذي مرتبة أدنى منه، ويأتي بذلك بالأخص من منظور إمكانية تعارض هذه النشاطات مع الأعراف التقليدية المتعلقة بالتمييز الجنسي.

ومن الأمور التي تختص بها صرامة الإدانة التقليدية أنه حتى في أوساط العرب الذين يفضلون إجراء تحسينات خاصة على وضع المرأة يستمر الإيمان بأن الرجل والمرأة لا يتمكنان من الامتناع عن ممارسة الجنس إن تركا لوحدهما. ففي الجزائر، أجري استطلاع لرأي الرجال العرب في قرية من قرى الواحات البعيدة وفي المدينة القديمة من الجزائر العاصمة، وكان السؤال: «ماذا تفعل إن عدت إلى منزلك ووجدت رجلا غريبا فيه؟» وكانت الإجابة نمطية على الأعم: فكل رجل عربي يفسر وجود رجل غريب في بيته على أنه دليل على الزنا. وكانت الإجابات فورية في العادة، حادة وعاطفية: «سأقتله.» وكما قال أحد الطلبة الجزائريين العرب، فإن الشاب لا يرى المرأة، إن كان صادقا، إلا كغرض للمتعة: بينما يعبر الكاتب والقيادي الثوري الجزائري مولود فرعون عن ذلك بشكل فظ فيقول: «إلى يومنا هذا، لا تزال الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد ترى هدفا ضروريا لها في الحماية الصارمة للحياة الجنسية للمرأة. إن الرجال يعتبرون هذه المهمة لا مناص منها، وأن شرفهم مدفون في الفرج وكأنه كنز أتمن من الحياة...» وبالمقابل توجد صورة نمطية عن المرأة تصورها كنوع من المخلوقات التي لا يمكن الوثوق بها وأنها «كما الحيوانات، تواقه للجنس وتحاول ممارسة الجنس مع أي رجل.» أو كما يقول عرب السودان، «ما التقى رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.»

ولا يمكن للمرأة أن تكون بعيدة عن تأثير هذه الآراء الذكورية، والتفاعل معها. فهي تلاحظ أن المرأة غرض شهواني يجب أن يلاحق، وما أن يدرك يتلق الإذانة. كما أن الرجل تلقى تربية تجعله محبا للتملك تجاه المرأة وأن يكون موقفه حيالها موقفا شهوانيا بحتا...

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

وبسبب الموقف البدائي تجاه الحياة الجنسية الذي تربت عليه، تعتقد المرأة أن ثمة شيئا معيبا يتعلق بالجنس. وبنفس الوقت، تجدهن واثقات من أن الرجل «مهجوس بالجنس».

إن هذه المؤشرات المحدودة، التي يمكن ضرب أمثلة مشابهة لها في العالم العربي وتكثرها عددا، يجب أن تكون كافية للدلالة على هواجس تأثيرات الجنس التي يحملها في ذهنه كل من الرجل والمرأة عن الجنس الآخر. وبالتالي لا مناص من أن يشعر بها تجاه جنسه هو. والخلاصة من هذا كله: لا يمكن للجنسين إلا أن ينجذبا لبعضهما البعض، ويريا الآخر باعتباره غرضا جنسيا في الأساس. وأنه يجب أن يطوق بقوانين شديدة «وأسوار» تمنعه من الدخول في متعة جنسية غير شرعية.

أما المظهر الثاني لهذا الهاجس فهو أنه ما من نشاط أنثوي يمكن أن يعرض دون الإشارة إلى الاعتبار الطاغوي لتهميش الأنثى. ولهذا، مثلا، يعارض التقليديون دخول المرأة العربية إلى عالم الأعمال لا بسبب قدرتها أو عجزها، وإنما تأكيدا على أن المرأة لا تستطيع الحفاظ على عذريتها هناك. وهذه الاعتبارات نفسها تحفز التقليديين لمنع دخول المرأة إلى عالم السياسة. وفي عام 1952، رفض علماء الأزهر طلبا بالسماح للمرأة بالانتخاب والترشيح للبرلمان، واعتمدوا في رفضهم على وصية قرآنية: [وقرن في بيوتكن]. ومن هنا رأوا بأن «من واجب المرأة أن تفعل كل ما هو ممكن لحماية شرفها وسمعتها... وأنها يجب أن تحجب عن كل ما يغيرها أو يجعلها سببا لإغراء الآخرين.» وعلى المرأة أن تستثنى من اللقاءات، وهو أمر واجب الحدوث في التصويت والانتخاب وجلسات البرلمان وما إلى ذلك. لأن مثل هذه المناسبات ستجمعها بالرجال مما يرفع احتمالية نشوء علاقة جنسية. وهذه الحجة تم إسنادها برأي يرى أن المرأة تتأثر عاطفيا بشكل خاص: «وفي الحقيقة، فإن المرأة، وبتأثير أنوثتها، تميل للخروج عن طريق العقل والصواب.»

وعلى الرغم من أن علماء الأزهر اضطروا لمجاراة تغيرات الزمن (حصلت المرأة على حقها في التصويت في مصر عام 1956، وفي سوريا عام 1949، وفي لبنان عام 1952، وفي

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

العراق عام 1967)، فإن آراءهم التي عبروا عنها في فتواهم السابقة عن الاختلافات الفطرية ما بين عقل الرجل وعقل المرأة لا تزال تجد من يعتنقها في العالم العربي. رجالا ونساء، متعلمين وأمييين. وحتى في أوساط النساء العربيات المنفتحات اللواتي يعملن في وظائف خارج المنزل، يلاحظ المرء دائما نوعا خاصا من وعي الذات يعبرن عنه من خلال مقدار بقايا الخجل الذي يحسسن به بعد تركهن للحجاب أو اعتدالهن في معارضته. ويلاحظ في العالم العربي غياب التلقائية الطبيعية الذي يتعامل به الجنسان مع بعضهما في الغرب المتعلم. رجالا ونساء، شبابا وفتيات.

2. الكبت الجنسي

هنالك مفهومان شائعان حول الحياة الجنسية للعرب يصادفهما المرء في الغرب. أحدهما يصور العربي على أنه ضحية القيود القاسية في المجال الجنسي، ويعيش في مجتمع تنفصل فيه النساء المحجبات عن الرجال. أما الثانية فتصوره على هيئة «كهل قذر» أمضى عمره يستمتع بالرقص الخليع للراقصات شبه العاريات في العلن. أما في حياته الشخصية فهو يمارس الجنس بإفراط مع «حريمه». وكما هو حال المفاهيم الشائعة والصور النمطية، ليس لهاتين الصورتين سوى حظ ضئيل من الواقعية.

تحتوي الحياة الجنسية للعرب على العديد من النواحي المتعددة التي يشترك الغربيون معهم بها. لذلك، فإن من الخطير جدا أن نجازف بإطلاق أي تعميم حول الحياة الجنسية للعرب، إلا إذا أردنا أن نقول بأن الجانب الجنسي يشكل جانبا أكثر حساسية في حياة العربي مقارنة بالغربي. وبسبب هذا الموقف، فإن الدراسات المتعلقة بهذا المجال تصادفها عوائق أكبر مما تصادف الدراسات الأخرى. ولا يواجه الباحث المصاعب في القيام بعمله كأثنربولوجي أو عندما يقوم بالمقابلات الشخصية فحسب، وإنما يجد ذلك في استخلاص المعلومات من الكتب والدراسات، حيث لا توجد إلا القليل من البيانات أيضا.

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

وكما هو حال العديد من الجوانب الأخرى لحياة العربي. فإن الجانب الجنسي يمر بحالة من التغير حالياً. فتحت وطأة التغريب. بدأت الأعراف الجنسية بالتغير. وكلما زاد تقبل الأخلاقيات الغربية لدى العرب. زاد جفاف المنابع التي تستقي منها الأعراف الجنسية العربية المغرقة في القدم. ومع أن الغالبية العظمى من العرب لا يزالون متمسكين بالتقاليد القديمة. فإن عدد هؤلاء الذين يتبعون التقاليد الغربية يتزايد يوماً.

وبملاحظة التقاليد العربية الجنسية المسموح بدراستها. دون أن ندلف إلى أسرار غرف النوم. يخرج الباحث بانطباع مفاده أن هذه التقاليد نتاج لكبت فظيع. إن ما يلاحظ من تجنب متبادل بين المرأة والرجل في الأماكن العامة. ووجود مجتمعيين منفصلين لهما لكل تقاليده ولغته وواجباته الدينية. وغير ذلك العديد من العوامل تشير. حتى بالنسبة للباحث غير المتدرب على وسائل علم النفس. إلى أنماط سلوك تطورت استجابة لكبت مبكر.

ويتفق كل من مؤيدي النظرية الفرويدية وعلم النفس التجريبي على وجود صلة مؤكدة بين العنف والحياة الجنسية. فليس العنف واضحاً أكثر عند الذكور فحسب. إنما تتزايد شدته بتزايد شدة الدافع الجنسي لديهم أيضاً. ومع أن هذا الميل للعنف يتم كبته من الطفولة المبكرة وعلى امتداد حياة الفرد. فإنه يترك أثراً في اللاوعي. كما يظهر من الحقيقة القائلة بأن «إنتاج الرغبات الطفولية والتخيلات المتعلقة بالطبيعة الجنسية تستمر حتى عمر متأخر.» أما الأداة التي يفرض بها الكبت على الطفولة المبكرة فتتمثل في التأثير الأخلاقي للبيئة المحيطة: وفي مقدمتها الموقع المسيطر الذي تحتله الأم.

إن مطالبة الوالدين الدائمة بأن يحقق طفلها أمانيهما تعد عاملاً أساسياً في خلق شعور بالإحباط عند الطفل. ويجد الطفل أحياناً هذا الإحباط خارجاً عن قدرة تحمله. ويرفضه أو يرفض هيمنة والديه. ويظهر هيجاناً عاطفياً في مزاجه. وهذا ما هو إلا محاولة شديدة لتأكيد الذات. وبينما يجادل بعض الباحثين بأن «العنف في الأساس تعبير عن الحيوية.» يفترض معظم علماء النفس أن العنف مرادف للعدائية والتدميرية. وأنه يتصاعد

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

دائماً كاستجابة للإحباط. وبهذا الاعتبار الأخير سنستخدم مفهوم العنف في هذا الفصل في رحلتنا لفهم متلازمة (الكبت الجنسي-الإحباط-العنف) في الشخصية العربية.

وللبدء بذلك، علينا أن نحاول معرفة ماهية الموقف الذي يغرس في ذهن الطفل حول الجنس. توجد بعض الأدلة الموثقة على تأثير أساليب تنشئة الطفل لدى العرب في هذا المجال. وبالأخص بعد السنة الثانية أو الثالثة من العمر حيث تكون هذه الأساليب شديدة العنف. ويلاحظ في الأسرة العربية التقليدية أن الممارسات الجنسية للأطفال تكون إما في نطاق التجاهل أو الإنكار. ويتصف الموقف العنيف للأمهات لمظاهر هذه السلوكيات لدى أطفالهن بأنه شديد إلى درجة جعلت 75% من الأمهات اللواتي سئلن عن ذلك يجبن بأن أطفالهن لم يمسوا أبداً أعضاءهم التناسلية. وفسر هذا الأمر من وجهة نظر الباحث الذي أجرى الاستجواب بأنه قد يعكس معارضة الأمهات الشديدة لمثل هذا السلوك أكثر من كونه حقيقة واقعة؛ فيرى أن الأمهات يعارضن مثل هذا السلوك بصرامة إلى حد يمنعهن من الاعتراف، حتى لأنفسهن، بأنه قد يقع. وأشد من ذلك أن 25% من الأمهات اللواتي اعترفن بأنهن صادفن أطفالهن وهم يلهون بأعضائهم التناسلية، فإن جميعهن (حوالي 90%) عبرن عن رفض كامل لذلك. ولم تكن الأمهات العربيات في موقفهن هذا أشد صرامة من الأمهات الأمريكيات في المسائل الجنسية، ولكنهن أقل سماحاً بكثير في ما يتعلق بالعنف الموجه ضد الوالدين، وأكثر شدة في التدريب على قضاء الحاجة (التخلي) والعقاب البدني.

إن النتائج المترتبة على هذا النوع من أساليب تنشئة الطفل في سياق ثقافة موجهة دينياً، كالثقافة العربية، يراد منها أن تخلق ترابطاً شديداً في عقل الطفل ما بين الجنس والخطيئة. وفي إحدى كتاباتي أشرت إلى أنه في المجتمعات اليهودية التي تعتمد التشريع التوراتي والتلمودي، يعتبر الزنا (وأعني به أي نشاط جنسي غير شرعي) «ينظر إليه باعتباره كبرى الخطايا، وأشد ما يكرهه الرب منها، والخطيئة التي لا يغفرها». واستمر العرب على اتباع هذه الرؤية القديمة بالكامل إل يومنا هذا. وكما أورد ادوارد عطية في سيرته الذاتية، كانت هنالك العديد من الخطايا التي يحذره أبواه منها لكن:

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

كانت هنالك الخطيئة التي غطت على الأخريات. الخطيئة الكبرى. خطيئة الخطايا: الجنس. وبالتدرج لُقنت الانتباه إلى أن الجنس بكافة وجوهه هو أمر يجب الشعور بالعار منه. وينبغي أن يبقى طي الخفاء. ولا يمكن أن يسمح به إلا ضمن رباط الزواج المقدس. ليكون نوعاً من الإهانة المشروعة. أما خارج هذه الحدود، فمجرد القبلة هي عمل داعر ما لم تكن في إطار زواج وشيك... وكانت النتيجة الصافية لكل هذه التأثيرات تطور في عقلي شعوراً عاماً وحاداً من العار حول الجنس بكافة وجوهه وأنواعه. شرعياً أم غير شرعي. وبدا لي أنه حتى الزواج لا يمنح المرء القدرة على الاقتراب من الموضوع بشكل آمن ومؤدب. وفي أيامي الأولى في المدرسة كنت شديد الخجل حتى أنني كنت لا أجرؤ على أن أذكر الفتيات في حديثي.

إن الموقف الذي ذكره عطية حيال الجنس هو وصف دقيق لما يتوقعه المرء كنتيجة لكبت شديد يطالب به الوالدان العربيان. فعندما يبلغ الطفل السادسة أو الخامسة من العمر، يكون الكبت قد ترسخ فيه ليحدد موقفه فيما بعد من الجنس كبالغ. أو يؤثر به على الأقل. ويظهر تأثير الكبت والخجل في تأخر بداية النشاط الجنسي. فقد أجريت دراسة على شريحة صغيرة من طلاب الجامعات العرب من لبنان وسوريا والأردن والعراق (113 طالباً من الذكور، تتراوح أعمارهم من 17 إلى 28 عاماً) على هيئة استطلاع رأي. وكانت الإجابات على الأسئلة تحمل بعض المعلومات في هذا الموضوع. حيث كانت الإجابات تقول بأنهم عاشوا حالات الاحتلام في نفس العمر الذي عايش فيه الطالب الأمريكي الحالة نفسها (وفق دراسات عالم الجنس الأمريكي ألفريد كينزي Alfred Kinsey). وهذا يشير إلى أن كليهما وصل إلى مرحلة البلوغ الجنسي في السن ذاتها. وهذا بحد ذاته اكتشاف مهم لأنه ينقض ما يلاحظه المرء من الفكرة السائدة حول العرب والتي ترى بأنهم يصلون مرحلة البلوغ الجنسي أبكر من نظرائهم في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، وما دام كلامنا عن الرجال، فإن هذا الرأي لا يبدو منطبقاً عليهم. ومع ذلك، قام الطلاب العرب

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

بتجاربهم الجنسية الأولى (سواء أكانت استمناء أم مضاجعة: مثلية أو طبيعية) بعد حوالي سنة من العمر الذي يفترض بالطالب الأمريكي أن يختبر فيه تجربته الجنسية الأولى. وأعطى مؤلفو الدراسة تفسيراً لهذا الظاهرة فرأوا أن ذلك قد يكون نتيجة للكبت الجنسي في المنزل. وأشارت إحدى النتائج إلى الأثر المستديم للكبت الجنسي المبكر: إذ قَدَّر الطلاب نسبة وجود أنواع مختلفة للنشاط الجنسي بين الذكور من أصدقائهم وباقي أعضاء المجتمع بقيمة أقل مما نتج عن البيانات المجموعة. كما قَدَّرُوا نسبة النساء اللواتي قمن بنشاط جنسي قبل الزواج بقيمة منخفضة جداً. ومع ذلك فإن 34% من هؤلاء الطلاب قام بممارسة الجنس مع نساء عاديات لا يعملن في الدعارة.

إن هذه الفجوة ما بين الاعتقاد والواقع يوازئها اختلاف مماثل ما بين السلوك العلني والسلوك الخاص. ويحمل التصرف العلني جنسياً على الاعتقاد بأن الكبت الجنسي المطبق في الطفولة يستمر في نتائجه إلى البلوغ. فكل تصرف جنسي علني يعتبر أمراً مشيناً لدى العرب. والزي العربي - باستثناء بسيط - يخفي بفعالية الشكل العام للجسم البشري ويغطيه من الرقبة للقدم. وفي الطبقتين الوسطى والعليا من المجتمع. فرضت العادات والتقاليد على المرأة أن تلبس حجاباً على وجهها؛ بينما يقوم الرجل والمرأة كلاهما بتغطية رأسيهما وشعرهما. لذا فإن أحد ردود الفعل للعربي على مظهر الغربي يتمثل في أن يعتبر تصرفه يكشف الكثير من الجسد ولذا فهو معيب. وكان هذا رأي العربي عندما رأى المرأة الأوربية وهي ترتدي التنورة القصيرة الضيقة والبلوزات المحكمة ذات الأكمام القصيرة أو من دون أكمام مع فتحة عند الصدر. بالإضافة إلى تسريحات منمقة لشعرهن المكشوف. ووجوههن المكشوفة المجملية بالماكياج؛ وذلك الحال نفسه بالنسبة للرجال الأوربيين ذوي البنائيل الضيقة التي تحدد ملامح الساقين والأرداف. والقمصان ذوات الأكمام القصيرة والصدور المفتوحة. وذقونهم الحليقة. وشعرهم الأثوي الطويل المكشوف.

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

في المجتمع العربي التقليدي. لا يحلم الرجل وزوجته أبدا بأن يسيرا سوية في الشارع جنباً لجنب. دون الحديث عن السير ذراعاً لذراع أو يدا بيد. فمثل هذا التصرف قد يعتبر تعبيراً مشيناً عن الحميمة بعيداً عن مكانه الملائم في المنزل أو في الجو الخاص الذي توفره غرفة النوم. وحتى في المنزل يراعي التواصل ما بين الرجل وزوجته القيود نفسها في حضور الأطفال أو الأقرباء أو الوالدين. ويصل هذا الأمر إلى درجة شديدة تجعل من السيئ أن يستفسر الرجل عن حال زوجة صديقه. وتتصف كلمة «زوجة» نفسها بأنها غير محببة في الاستعمال الشائع لأنها تحمل تأويلاً جنسياً (الاشتقاقها من فعل التزويج). ويتم الاستعاضة عنها باستعارات غير مباشرة مثل «امرأتي» و«مدامتي» و«حرمي» و«أم حسن» و«بنت عمي» و«يختي» و«يا بنت الناس». وتدعو الزوجة زوجها. بالمقابل: «يا سيدي» و«يا ابن عمي» و«يا أبو حسن».

ويشاهد الموقف المقيد ذاته في سلوك الشباب قبل الزواج. وذلك على الأقل في المناطق التي تسيطر عليها العادات والتقاليد. فالفتيان يرغبون برؤية الفتيات ويفعلون أموراً متهورة للحصول على نظرة واحدة. لكن أخلاقيات القرية ترى أنه من غير المناسب حتى أن يتبادلوا النظرات في ساحة أو شارع. وعليه. يمكن للمرء أن يصادف المشهد التالي كل مساء في إحدى القرى اللبنانية المدروسة: يتسكع شباب القرية جيئةً وذهاباً عند بئر القرية في المساء قبل نصف ساعة من الوقت الذي يعلمون بأن الفتيات سيحضرن فيه لجلب الماء. والغرض من هذا الاستعراض. بالطبع. أن يحظوا بنظرة من فتاة. لكن ما أن تقترب الفتيات للسقاية يتوقف الشباب عن استعراضهم. فمشهد الفتيات نفسه. والذي أمضوا نصف ساعة في انتظاره. يقدح في داخلهم شرارة رد الفعل الداخلي على مشهد امرأة لا تمت لهم بصلة. فيبتعدون بشكل آلي. لأن من غير المناسب أن يبقوا هناك يحدقون بشهوة فيهن.

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

3. الحرية الجنسية والضيافة الجنسية

بينما يلاحظ التقييد في العديد من أنحاء العالم العربي وقطاعات عديدة من المجتمع العربي، ثمة مدى كامل من التفاوت المحلي فيما يخص حدود السلوك الجنسي المشروع. ففي المجتمع البدوي والقروي، بالإضافة إلى الطبقات السفلى من سكان المدن، تتطلب حاجات الحياة اليومية من النساء أن ينخرطن في نشاطات معينة خارج المنزل. وفي أوساط البدو تقوم النساء بجمع الحطب والروث ورعاية الحيوانات وإحضار الماء وما إلى ذلك. أما عند القرويين فالنساء ينقلن الطعام إلى الرجال في الحقول ويساعدنهم في أعمال الزراعة وخاصة أيام الحصاد ويحضرن الماء ويأخذن المنتوجات الزراعية إلى السوق... إلخ. وفي المدن يذهبن إلى السوق لشراء الطعام ويعملن في منازل الأثرياء كخادومات. ومع تقدم موجة التغريب، أصبحن ينخرطن أكثر فأكثر في الوظائف التي تدرّ عليهن الدخل خارج المنزل. وفي هذه النشاطات جميعها يكون للفتاة غير المتزوجة فرصة لأن ترى الرجال ويروها، ويتلو ذلك لقاء صداقة. وحتى قبل أن تبدأ نزعة التغريب، كان الفتيان والفتيات يتمتعون بالحرية في نطاق القرابة حتى في أنبل القبائل البدوية، مما ينتج عنه مغامرات عاطفية تنتهي بالحمل في كثير من الأحيان وهذا ما يؤدي إلى عواقب مأساوية في العادة.

جرت العادة في المجتمعات المستقرة على وجود مهرجانات دينية في المساجد تفرضها العادات والتقاليد ويشترك فيها الرجال والنساء حيث تسنح الفرصة للمغازلة، ويشعر الرجال بحرية في لمس النساء دون رادع. ويلاحظ بالأخص في أطراف العالم العربي، وفي المناطق البعيدة عن المدن الإسلامية، أن تقاليد ما قبل الإسلام لا تزال سائدة لتسمح بحرية أكبر بكثير فيما يخص العلاقة ما بين الجنسين، وتسمح بأخلاقيات جنسية تُشعر المسلم العادي بالرعب والاشمئزاز. وثمة ذكر لتساهل جنسي كبير في منطقتين تقعان كلاهما على هامش الثقافة العربية الإسلامية: الطوارق في غرب وسط الصحراء العربية، وسكان الحافة الجنوبية لشبه الجزيرة العربية. وسوف نتناول كليهما بالبحث في هذا الفصل، ولكننا سنقصر ملاحظتنا على المنطقة الثانية.

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

يقول الرحالة والجغرافي العربي ياقوت الحموي (1179-1129م) في معجمه الجغرافي الشامل، معجم البلدان، واصفا مدينة المرباط التي تقع على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية:

«فيهم قلة غيرة كأنهم اكتسبوا بالعادة، وذلك أنه في كل ليلة تخرج نسأؤهم إلى ظاهر مدينتهم ويسامرن الرجال الذين لا حرمة بينهم وبلابنهم وبلابنهم إلى أن يذهب أكثر الليل، فيجوز الرجل على زوجته وأخته وأمه وعمته وإذا هي تلاعب آخر وتحادثه، فيعرض عنها ويمضي إلى امرأة غيره فيجالسها كما فعل بزوجه.»

وبعد أكثر من قرن، ورد تقرير آخر عن أخلاقيات بلدة أخرى في جنوب شبه الجزيرة العربية. وقد وضع هذا التقرير ابن بطوطة، أحد أشهر الرحالة في زمانه، والذي زار معظم أنحاء العالم المعروف في القرن الرابع عشر. وذكر ابن بطوطة أن نساء نزوى، البلدة الرئيسية في عمان «ذوات أخلاق سيئة جدا» وأن أقرباءهن من الرجال لا يشعرون بالغيرة عليهن ولا يمانعون سلوكهن. والنساء يستسلمن للرديلة بحماية من الأمير، ولا يستطيع حتى أبأؤهن من أن يمنعهن من ذلك.

إن اللامبالاة الجنسية، أو ما أشيع عنها، لا يزال موجودا طي الكتب، وأكثر شكل يلاحظ لهذه الظاهرة هو الضيافة الجنسية. فقد ذكر يوهان لودفيغ بيركهارت (Johann Ludwig Burckhardt)، وهو رحالة ومستعرب سويسري شهير، في بدايات القرن التاسع عشر أن إحدى القبائل في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية كانت تمارس عرفا قديما يقضي بأن يبيت الضيف مع زوجة مضيفه. فإذا ما توافق الضيف مع زوجة المضيف، عومل باحترام كبير في الصباح التالي، وإذا لم يحصل ذلك، تقوم الزوجة بشق أسفل عباءته إشارة للعار، فيتم طرده يجرجر أذيال الاحتقار من قبل النساء والأطفال في المخيم.

إن الضيافة الجنسية وغيرها من مظاهر اللامبالاة الجنسية ظهرت في تقارير في أواخر القرن التاسع عشر عن قبائل مختلفة في جنوب شبه الجزيرة العربية، حيث للفتاة الحرية

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

في ممارسة الجنس مع الغرباء بدءاً من عمر الخامسة عشرة وإلى أن تتزوج. وحتى بعد الزواج. لا تمتنع الزوجة عن ذلك إلا إن كان زوجها على مقربة أو كان من الصعب إبقاء الأمر طي الكتمان. ولهذا التقليد أشكال تختلف من مكان لآخر. لكن العامل المشترك بينها هو الهامش الكبير من الحرية الجنسية الذي يُمنح للمرأة. بما في ذلك قضاء ليلة مع شخص لا يمت لها بصلة قري. سواء أكان من القبيلة أم غريباً عنها. ولا بد أن هذا العرف كان طقساً متبقياً من طقوس الخصب التي يراد منها ازدهار عدد أفراد القبيلة والمواشي والزرع. وبينما أشار عدد من الكتاب المعاصرين إلى استمرار الضيافة الجنسية عند قبائل عربية محددة. فإن كتاباً آخرين ينكرون ذلك. على الأقل في تلك الأجزاء التي ألفوها من شبه الجزيرة العربية. على أن كل التقارير تتفق على أنه ضمن قبائل محددة في شبه الجزيرة العربية. كان الرجال يكتفون بلبس الوزرات ويتنقلون دون غطاء للرأس. أما النساء فلم يكن يلبسن أي شيء في ما يعلو الخصر. دون حجاب. ويلتقين بحرية وتلقائية مع الرجال. ويقمن بجزء من واجب خدمة الضيوف ويتحدثن معهن. وكان الزواج والطلاق يحدث بسهولة كبيرة.

4. الوسائل المختلفة للتنفيس الجنسي

إن التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع تلفت الانتباه لأنها في الأساس تشكل استثناءات للسلوك المؤدب الملتزم في العلن في كافة شؤون الخصائص الجنسية للعالم العربي بشكل عام. وعلى الرغم من ذلك. فإن السلوك العلني للعربي في وادٍ وسلوكه في السرفي وادٍ آخر. ففي السر. وُجد بأن النشاط الجنسي للطالب العربي أكثر كثافة مقارنة بالطالب الأمريكي. فما أن يتغلب الطالب العربي على العوائق التي كانت تكبحه في الطفولة. يقوم العديد من الطلاب العرب بعلاقات جنسية طبيعية وشاذة تفوق ما يقوم به الطلاب الأمريكيون المشار إليهم في المبحث السابق. أما عدد من يمارس الاستمناء فهو متماثل عند الطلاب العرب والأمريكيين. ولكن الطلاب الأمريكيين يمارسون الاستمناء بتواتر أكثر من أقرانهم العرب بمقدار الضعف تقريباً. وقد يفسر ذلك بأن الاستمناء مرفوض عند العرب

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

أكثر مما هو حاله لدى الأمريكيين. على الجانب الآخر، تفوق العرب على الأمريكيين بمقدار يفوق الضعف (59%:28%) بما يخص عدد الطلاب الذين زاروا بيوت الدعارة قبل سنة من إجراء الاستبيان. وهذه الممارسة تعد التنفيس الأفضل «باعتبارها لا تحتوي إلى القليل من الرومانسية، ولا تقلص قدرة الشريك [الفتاة] على الزواج، ولا تلوث شرف العائلة، الخ.» وكل هذه الاعتبارات مألوفة لمن يلم بتاريخ أعراف بريطانيا في العصر الفيكتوري. ومن هنا لا يمكن اعتبار هذه النتائج تسليطا للضوء على العقل العربي بشكل خاص. إلا إذا اعتبرنا ذلك محاولة لإثبات موقف عام تم التغلب عليه منذ زمن طويل في الغرب.

على النقيض من ذلك، فإن الموقف من الشذوذ الجنسي عند العرب يعد أكثر تحررا إذا ما قيس بمثيله في الغرب قبل حركة «حرية الشاذين» قبل عدة سنوات مضت. فالمحظور الاجتماعي الخاص بالشذوذ الجنسي ليس على ذلك القدر من القوة الذي شهدته أمريكا إبان الخمسينات حينما أجري الاستبيان. حيث رأى الطلاب أن النشاط الجنسي الشاذ بالخصوص متوافق مع الرجولة الحقيقية. وبهذا الاعتبار، يتفق الموقف العربي حيال هذا الأمر مع الموقف التركي. حيث يعتبر ممارسة الشذوذ الجنسي لدى الأتراك أمرا يؤكد على تفوق المرء من حيث رجولته الطاغية، بينما يعتبر تعرض المرء للشذوذ الجنسي أمرا شديد العار والإهانة لأنه يظهر الرجل أو الفتى بمظهر أنثوي تابع.

في معظم أنحاء العالم العربي، يعتبر الشذوذ الجنسي أو تحبيذه أمرا لا يخرج إلى العلن كما هو حال كافة مظاهر السلوك الجنسي. فهذه أمور خاصة تبقى طي الكتمان، ويعود ذلك بشكل خاص لورود نص في القرآن حول ذلك [قوم لوط]. ومع ذلك يبقى الرأي الشائع مخالفا لذلك رغم تحذير المدارس الفقهية، ويمارس الشذوذ الجنسي بشكل شائع إلى يومنا هذا. وفي المناطق النائية فحسب، مثل واحة سيوة التي تقع في الصحراء الغربية لمصر، يمارس الشذوذ الجنسي في العلن حيث يتبادل شيوخ القبائل والأغنياء أبناءهم في ما بينهم. ومن المثير أنه حتى في مكان مثل سيوة حيث يمارس الشذوذ الجنسي في العلن بشكل كامل، يحتقر الشريك المفعول به باعتباره امرأة. حيث يقول

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

أحد من يعلم أخبارهم: «ليس هنالك رجل واحد في سيوة؛ فالجميع نساء.» ويشرح ذلك قائلاً: «ألا ترى بأن الرجل إذا قام بهذا الفعل عندما كان صبياً، فإنه لعب دور امرأة؛ وعندما يقوم به وهو رجل، فإنه لا يزال يلعب دور امرأة.» أي أنه رغم ممارسة هذا الفعل ضمن العادات والتقاليد، فإنه من المهين للرجل أن يلعب دور المرأة.

ونفس التقييم للسلوك الجنسي باعتباره فرضاً للسيطرة الذكورية العنيفة نستنتجه من النظرة العربية للاستمناء حيث تعتبره أكثر عاراً من زيارة بيوت الدعارة. فالرجل يمارس مع العاهرات سلوكاً ذكورياً. ومن يمارس الاستمناء يظهر عجزه عن ممارسة السلوك الجنسي الفاعل، فيعرض نفسه للعار.

ثمة موقف واحد يمكن فيه تجاوز محددات السلوك الجنسي في العلن. وذلك عندما يغضب الرجل أو المرأة فيسمح له بتوجيه هجوم لفظي من الشتائم الجنسية المسيئة. إن جاهزية العربي لينفجر فمه بمثل هذه الإساءة أمر لاحظته المستشرق البريطاني ادوارد ويليام لين (William Edward Lane) في القاهرة في أوائل القرن التاسع عشر ووصفه بشكل فريد قائلاً: «بدءاً من الأشخاص ذوي السوية العالية من الثقافة، تسمع دوماً تعابير شديدة الإهانة بحيث لا تليق إلا بمستوى ماخور وضع.» وحتى يومنا هذا، يمكن لأي شجار أو خلاف بسيط أن يدفع بسهولة إلى التلفظ الغاضب بألفاظ مثل «كس أمك» ويتبع ذلك تبادل لألفاظ أكثر صراحة مما يؤدي إلى ضرر أكبر وإهانات أكثر عصبية.

إن موقف العرب من الجنس يتصف بجانب إضافي يجب أن يعرض هنا أيضاً، وهو العفوية المفرطة التي تعامل بها الرغبات والوظائف الجنسية عندما يشار إليها، أو حتى أنها تناقش بتفصيل كبير واستمتاع، وبخاصة عندما يكون مجلس الحديث مقتصرًا على أحد الجنسين. وهذه الظاهرة يقف أمامها الباحث الغربي متحيراً، الذي لا يستطيع الجمع ما بينها وبين التأدب الكبير والخجل الذي يميز السلوك الجنسي العلني لدى العرب. فعلى السطح، يبدو أن ما يتعامل معه المراقب هو عبارة عن تمظهر صادم للتوجهات

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

والاستقطابات والتناقضات المتعارضة والذي يبديه العقل العربي في الكثير من المناسبات. وقبل أن نحاول البحث عن تفسير لهذا التناقض. لنقم أولاً بإلقاء نظرة أقرب على الطرق والسياقات التي تعبر من خلالها عن نفسها هذه الطريقة في تناول الموضوع الجنسي.

يمكن أن نجد أحد أسباب هذه الظاهرة في الأدب الشعبي الذي أمتع العرب. مثقفين وأميين. لعدة قرون (مثل كتاب ألف ليلة وليلة الشهير) إذ يحتوي هذا الأدب على وصف لحوادث كثيرة ارتكب فيها استغلال جنسي غير شرعي. وعرضت هذه الحوادث بشكل صريح لا يوجد ما يماثله في الأدب الجنسي الأوربي. وبينما يوجد قليل من الشك حول أن غرض الكاتب من ذلك كان إمتاع القارئ أو المستمع الذي كان بعيداً عن أن يعيش المغامرات المثيرة المذكورة. ففي نفس الوقت يلاحظ غياب كامل للتقييم الأخلاقي للقصص. وليست المغامرات الجنسية التي يخوضها بطل القصة (مثل حكايات الأغنياء، وهي مكون قصصي آخر يحظى بالتفضيل في الأدب العربي) إلا نتيجة لحذره ودهائه. أو «ضربة حظ». وثمة قاعدة لهذه القصص تقضي بأن لا يتعرض البطل لأية عقوبة أو انتقام. على الرغم من خرقه الواضح للأعراف الأخلاقية.

وتبدو اللامبالاة الأخلاقية السابقة واضحة في الحرية التي تتصف بها أحاديث الشؤون الجنسية. حتى مع وجود الأطفال. ومثل هذه الأحاديث حفظت في فترة الواقعة ما بين القرنين العاشر والثاني عشر من خلال تدوين قصص (ألف ليلة وليلة). وأطال المستشرق لين الاستماع إليها وشعر أنه يجب أن يتكلم عن ذلك فقال: «تقوم النساء الشريفات بتسمية الأشياء بمسمياتها والتحدث عن الأمور الجنسية دون الالتفات إلى صلافة الحديث. وذلك على مسمع من الرجال. في حديث تكاد الكثير من عاهرات بلادنا يأفنن من الإشارة إليه.» وبعد مئة عام جاءت وينفريد بلاكمان (Winifred Blackman) لتلقي بالملاحظة نفسها واصفة النساء في إحدى قرى مصر العليا: «تشكل القضايا الجنسية الموضوع الأساسي في أحاديثهن.» وحتى في حضور الأطفال والبالغين «يقمن بمناقشة أشد الأمور خصوصية دون أي تحفظ يذكر.» وينتج عن ذلك أن الأطفال يألفون منذ نعومة

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

أظفارهم سماع الأحاديث والنكات الجنسية. وينتج عن ذلك أن الأطفال يتلقون في وقت مبكر الموقف نفسه المسلّم به تجاه الجنس. وكما سجل أحد دارسي المجتمع العربي (الباحث المصري هنري عيروط): «حتى البنات اللواتي يلعبن بالدمى يقمن بتمثيل مشاهد جنسية شديدة الواقعية. ولكن هذا الهدوء الحيواني الصلف لا يدعو للذعر ولا علاقة له بخدش الحياء. ولا تتأثر به الأخلاق الأساسية.» وبالنتيجة، لا يجد الفلاحون تناقضا ما بين الكلام والسلوك غير المنضبط والقيود الجنسية الشديدة التي يقع الأولاد والبنات تحت طائلتها ما أن يصلوا سن البلوغ. ولا يحتاج الطفل العربي -إلا نادرا- إلى أن يتعلم «حقائق الحياة» من أب وأم خجولين: فقبل أن يبلغ بمدة طويلة، يكون الطفل قد تعلم كل ما يعرفه أبواه عن الجنس، بما في ذلك الجوانب المشروعة وغير المشروعة.

وفي محاولة فهم ما يمكن أن يصطلح عليه بـ(المفارقة الجنسية في الحياة العربية)، علينا أن ننتبه إلى أنه بقدر ما تصر العادات والتقاليد على عفاف المرأة والفصل الجنسي خارج عش الزوجية، تشجع هذه العادات والتقاليد نفسها على ممارسة الجنس داخل عش الزوجية. وتوجد أحاديث تنص على أن أفضل المسلمين هو من يتزوج أكثر، بينما تعد العزوبية أمرا ينافي التقاليد الدينية. وتبعاً لهذا، يمكن للرجل أن يعبر عن رغباته أو نشاطاته الجنسية دون أن يشعر بالإحراج بنفس النمط الذي يعبر به عن جوعه أو استمتاعه بحمام ساخن. وتكثر الأمثلة على هذا السلوك في كل طبقات المجتمع العربي، من غني وفقير. ومما نقل عن الملك عبد العزيز آل سعود، أنه كان يمازح ضيوفه بعد الولائم، ولا يجد حرجا في أن يتكلم مع جليسه عما سيحصل للحرم بعد ذلك، ثم يعود بعد وهلة ليكمل حديثه دون أي إحراج.

وعندما يكون الأصدقاء متجمعين في حشد لا نساء فيه، يميل البعض إلى استعراض قواه الجنسية خالطاً الحقيقة بالخيال. ويظهر نفس الموقف الصلف تجاه الجنس الزوجي في حادثة نقلها الباحث الأمريكي في شؤون الجزيرة العربية، ريتشارد سانجر (Richard H. Sanger). إذ يروي سانجر أنه في منزل أحد المسؤولين السعوديين المهمين،

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

انضمت مجموعة من النساء لمشاهدة عرض خاص لفيلم سينمائي. وفي أثناء ذلك. رن جرس الهاتف الذي تم تركيبه مؤخرا في الساعة 11 ليلا. وكان المتصل زوج أربع نساء كن يشاهدن الفيلم. طالبا أن تأتي إحداهن إلى المنزل من أجله. وليس مهما أي واحدة. فنهضت النساء البدينات البطيئات الأربع فورا وغادرن راجيات مضيفتهن أن تسمح لهن بالمجيء في الليلة التالية لمشاهدة نهاية الفيلم.

مما سبق تتبين الحدود ما بين الجانب الخجول والجانب الصلف في السلوك الجنسي. وأول هذه الحدود: الحظر الشديد لأي اتصال مهما كان شكله في العلن ما بين الرجال والنساء. ولا يمكن خرق هذا الحظر إلا بما توفره الحشود من مجهولية الاسم. أما على المستوى الخصوصي. فكل شيء مباح وتسقط كل التحفظات. وعندما يعلم العربي أن لا أحد يراقب ما يفعله. وأن بإمكانه نتيجة لذلك التصرف دون خشية العقاب. فإنه يخترق القيود والتحفظات.

أما بالنسبة للتمظهرات اللفظية. فالوضع مختلف. فعندما يجتمع الأصدقاء من جنس واحد. يمكنهم التعبير عن اهتماماتهم بالمسائل الجنسية بشكل صريح. وهذا يتوافق مع ميل العرب إلى التعبير اللفظي والإسهاب اللغوي. وعادة ما يكون للكلام عن الجنس متعة توازي متعة ممارسته. وثمة بعض الحدود في ذلك. إذ يجب الامتناع عن ذكر زوجة أو زوج أحد الجالسين أو الجالسات. وعندما يكون الكلام منصبا على الجنس. تعتبر الجلسة أحادية الجنس حلقة خاصة: فلا يصبح هذا الكلام محظورا إلا إن دخل شخص ما من الجنس الآخر إلى الجمع.

ومما عرضناه سابقا يتبين أنه لا توجد في الحقيقة ما يمكن تسميته بالمفارقة في السلوك الجنسي عند العرب. وإنما توجد استقطابات. فهناك استقطابا الشرعي وغير الشرعي: فيشجع الأول ويمنع الآخر. وهناك استقطابا العلني والخصوصي: ففي الآخر حرية استمتاع كاملة. وفي الأول منع من مجرد الإشارة غير المباشرة. وهناك استقطابا الفعل

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

والقول: إذ يمكن الحديث في مجلس أحادي الجنس عن الجنس بقدر ما يشاء المرء، لكن ممارسته محاطة بقيود كثيرة. وفي نطاق الكلام، هناك استقطابا الانضباط والتسيب: في الأول لا ترى سوى التنميق والمحددات، وفي الآخر موجة قول فاحش تثيرها نوبة غضب.

5. الازدواجية والتغيير

قيل ما يكفي عن الأعراف الجنسية المتجذرة في أذهان العرب صغارا وكبارا، وعن المناخ الذي يحيط بمملكة الجنس، وذلك من أجل أن نشته بأن الموقف العربي التقليدي تجاه الجنس لا يد أن يكون مزدوجا. وهذا، في الواقع، يمثل حقيقة الأمر. إن التذكير المستمر بما في الجنس من خطيئة هو في الوقت ذاته تذكير بمرغوبيته. إن عملية تثقيف الأطفال، أبناء وبنات، تتضمن سلسلة مكررة من التحذيرات حيال الجنس، إلى أن يتجذر فيهم الوعي الذي يمنعهم من اقتراح أي تعدُّ يلحق كارثة على هذا المستوى بالعائلة كلها كما هو حال الأخطاء الجنسية. ويدرك الأطفال أثناء نموهم أن كافة الترتيبات الاجتماعية تقريبا المختصة بتحديد حياة المجتمع تتمحور حول مسألة واحدة هي الحماية من احتمال حدوث تعدُّ جنسي. ويؤدي ذلك إلى رسم صورة محددة في ذهن الفرد عن جنسه وعن الجنس الآخر. إن الشاب ينشأ وهو يدرك بأنه لولا الفصل بين الجنسين والموت الذي ينتظره إن هو ضبط متلبسا بإساءة جنسية، فما من محرمات يجبره تكرار ذكرها على الامتناع عن ممارسة الجنس في أول فرصة تسنح له. كما يصل إلى نتيجة مؤداها أن غريزته الجنسية شديدة القوة بحيث ليس هنالك إلا الموانع المحسوسة لتحويل دون ممارسته الجنس مع امرأة من محيطه الاجتماعي، كأن يكون هذا المانع الفصل الجنسي أو الرقابة. وتتعرز هذه الصورة التي يحملها الشاب تجاه نفسه بما يحس به من انطباع تجاه الفتيات والنساء: فهو يرى أن رغبتهن الجنسية تساوي رغبته في الشدة، وما عليه إلا أن ينفرد بإحداهن، حيث ستقاوم بشدة أول الأمر، لكنها سرعان ما «تنكسر عينها» وتصبح طوع يديه إذا استمر بتقبلها. في الواقع، وكما هو حال الرأي الشعبي، للنساء رغبة جنسية أشد من مثيلتها عند الرجال.

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

إن الصورة التي تحملها المرأة لنفسها لا تخرج في الواقع عما ذكرناه. إذ تنشأ المرأة على تصديق أنها لن تستطيع مقاومة الرجل وما يبدر عنه إن هي انفردت به. لذلك ينبغي عليها أن لا تسمح لنفسها بأن تكون في موقف كهذا. كما تعلمت منذ الصغر أن مجرد رؤية الرجل للمرأة يمكنها أن تثير غريزته. وعندها لا يمكن إلا لمؤثر خارجي أن يمنعه من تنفيذ رغبته. إن هذه الانطباعات والتوقعات هي، بالطبع، تقع بسبب افتراض أنها تقع. وفي مجتمع يعتقد فيه الجميع أنه في غياب مانع خارجي لا يمكن للرجل والمرأة أن يحولا ممارستهما للجنس، سيتصرف الرجل والمرأة كذلك تبعا لهذا الافتراض.

من هنا فإن الجنس ممنوع. ولذلك فهو مرهوب، ومرغوب، ومن هنا فإنه مطلوب. والمنع والرغبة كلاهما يختبرهما المرء على قدرٍ ما من الشدة. بحيث يمكن يشير هذا القدر إلى شدة كبت الاهتمام الجنسي في مرحلة الطفولة. وبعد البلوغ يخلق هذا الكبت إحساسا شديدا بالإحباط. أما إذا تعطلت آليات التحكم الاجتماعي أو استثنيت. فإن العدائية المكبوتة تنطلق بفعل الغريزة الجنسية المكبوتة وتظهر في العن لتعبر عن نفسها بشكل جنسي كما هو حال أي تعبير عدواني آخر. وفي مثل هذا الوضع، يقوم الغضب بإطلاق إساءات لفظية جنسية عدوانية شديدة. وثمة وضع آخر يحدث عندما ينقل الفرد إلى وسط اجتماعي جديد (مدينة جديدة مثلا). ففي بيئة يعتبر فيها مجهولا، يحس الفرد أن المحظورات القديمة، بما تضمنه من تهديد بالعقوبة، يمكن أن تنتهك بأمان. وثمة وضع ثالث يعجز فيه المنع عن أداء عمله ويحدث عندما تشاء الصدفة أن يتواجه رجل (أو مجموعة من الرجال) مع امرأة في مكان لا شهود فيه. ففي هذا الوضع، وخاصة إن كانت المرأة لا تنتمي إلى جماعة الرجل أو تنتمي إلى عشيرة معادية، فإن المحتمل جدا أن تتعرض هذه المرأة لإساءة جنسية. وإذا كان ممكنا لها أن تتعرف على من هاجمها، فربما تتعرض للقتل من أجل حماية مهاجميها.

قبل أن نصل إلى استنتاج ما أوردناه في هذا الفصل، دعونا نقرب، ولو بشكل مختصر، من التساؤل حول إمكانية وجود أية حقيقة في النظرة إلى العرب باعتبارهم مدمنين للجنس

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

إلى مدى يفوق نظيره عند جيرانهم الشماليين. فهل هم أكثر قابلية للإغراء. وأكثر ميلا لإشباع أنفسهم بممارسة الجنس طلبا للمتعة الناتجة عن ذلك؟ هل يلعب الجنس دورا أهم في العقل العربي مقارنة بالانكليز والألمان مثلا؟ ونعثر على إجابة لهذه الأسئلة عند المستشرق البريطاني ادوارد ويليام لين (William Edward Lane) في أوائل القرن التاسع عشر والذي كان مراقبا ماهرا وكتب تقارير دقيقة. حيث أجاب بنعم. يقول لين: «كلما كان الإغراء متعلقا أكثر بإشباع الرغبات الشهوانية. كان المصريون. ومعهم سكان كافة المناطق الحارة. يتفوقون في ذلك حتما على الكثير من الشعوب الشمالية.» ويسجل لين أن المصريات بالأخص «لديهن صفة المشاعر الأكثر شهوانية» ويضيف بأن الأشد إثارة من ذلك هو أن «هذه الصفة يفتخر بها لهن رجالهن. حتى في أحاديثهم مع الأجانب.» ونحن من جانبنا نتردد في إعطاء مثل هذا الجواب الملتبس. ففي أشد الأعراف الجنسية تشددا والتي تشكل جزءا من الثقافة التقليدية عند العرب. يمكن للمرء أن يستنتج أن كافة المحظورات التي يتضمنها ما هي إلا ضرورات لما في الجنس من فتنة تؤثر فيهم بشكل أقوى مقارنة بالشعوب الأخرى التي أشرنا إليها. ولكننا إن افترضنا ذلك. يمكن لرأي آخر أن يبرز مفترضا أن الهاجس الجنسي الأعظم الواضح والمميز للعرب هو نتيجة لهذه الأعراف نفسها التي تحدد وتمنع نشاطهم الجنسي.

ومهما كانت الحال. يمكن الاستنتاج بأنه عند مقارنة العالم العربي بالغرب. يشكل المجال الجنسي مشكلة أكبر للعرب وبالتالي يتطلب اهتماما وقلقا أكبر. وأصبح التضاد ما بين العالمين ملحوظا بشكل خاص منذ ظهور ما أطلق عليه الثورة الجنسية في ستينات القرن العشرين في الغرب. والتي تسببت في زوال العديد من المحظورات الجنسية التي فرضتها العادات الاجتماعية والثقافية. وأدت الأعراف الجديدة المنتشرة في المراكز الحضرية الكبرى في الغرب بما فيها من تحرر إلى تضائل الجانب الإشكالي في الجنس وحولت النشاط الجنسي إلى شيء شبيه بالرياضة يشارك فيه اليافعون جميعا كنشاط طبيعي. وبينما كان اليافعون في الماضي يطلب منهم تسخير كافة طاقاتهم للدراسة

العقل العربي

الفصل الثامن: ملكة الجنس

والرياضة. أصبح من المقبول في أيامنا هذه وجود ثلاثة مجالات يجب على الشباب أن يثبت كفاءته فيها قبل أن يكون مهينا تماما لأخذ موقعه في المجتمع. وهذه المجالات هي: الجنس والرياضة والدراسة. ولا يوجد أي من هذه المجالات الثلاثة في العالم العربي. ومع أن الدراسة تحصل يوما بعد يوم على مكانة عالية. وأن الرياضة تزدهر عندهم باستمرار (وكلاهما يستمد طاقة محفزة كبيرة من الشعور القومي). فإن الجنس لا يزال مختبئا في ظلام المحظورات القديمة.

على الأقل يمكن الإشارة إلى مفكر عربي حديث ذي أفكار مؤثرة. وهو علي الوردي. والذي استطاع أن يصل إلى إدانة الأعراف الجنسية العربية التقليدية. بل إنه عزا أسباب دمار المجتمع المسلم وضعف حيوية الجيل الشباب إلى المحظورات الجنسية المعقدة (التي شاعت في فترة ما قبل ستينات القرن العشرين) في المجتمع العربي. ودعا إلى خلع الحجاب. والاختلاط. والاشترار في الرقصات الاجتماعية. وحتى المغازلة. ولا داعي للقول هنا بأن دعوة الوردي للتححرر الجنسي قد أثارت إدانة قوية من عدة فئات اجتماعية وتلقت مطالبه الرفض. وترافق ذلك دائما مع نزعة واسعة معارضة للتغريب بشكل عام.

إن صدور الدعوات بشكل فردي في الجانبين يذكر بالنمط الذي ميز النقاش حول تحرير المرأة جنسيا والذي سبق الثورة الجنسية في الغرب خلال ستينات القرن العشرين. إن القضية في تحليلها النهائي تتعلق أساسا بالسؤال التالي: هل ينبغي للمرأة أن تتمتع بالحرية الجنسية نفسها التي يتمتع بها الرجل. أم لا؟ أو بصياغة أخرى: هل ينبغي الإبقاء على المعيار المزدوج في الأعراف الجنسية. أم لا؟ وبما أن العادات والتقاليد المتعلقة بالجنس تحتل موقعا صميما في الثقافة العربية. فهذا يفسح المجال للتوقع بنشوب صراعات طويلة الأمد حول هذه القضية. إن الرواد في هذا المجال سيتعرضون للاتهام. كما حصل مع علي الوردي. بأنهم يحاولون تعريف العالم العربي بأفكار خاطئة ورتائل من «بلاد الغرب المظلم أخلاقيا». وقد تصل الأمور إلى حد اتهام الغرب بممارسة نوع جديد كليا من «الامبريالية الجنسية» وربما يعتبر هذا النوع الأكثر وحشية برأي مناهضي تلك الدعوات

العقل العربي

الفصل الثامن: مملكة الجنس

باعتباره المحاولة الأكثر خبثاً من الغرب لفرض ذاته على المشرق العربي. ومع ذلك، وبما أن كافة الأصوات التي عارضت الامبريالية الثقافية الغربية لم تكن ذات جدوى كما ظهر لاحقاً، يمكن التوقع بأن العقل العربي لن يكون له في النهاية خيار سوى قبول الأعراف الجنسية الغربية؛ وأن حكيمته الفطرية ستجد سبيلاً إلى تعديلها وقبولتها إلى أن يصل -بعد ما شهدناه في تجربة «الاشتراكية العربية»- إلى مشتق متنوع عربي خاص فيما يخص السلوكيات الجنسية الجديدة.